# كنتُ جميلة يوما ما

بقلم: لخضر شكير - الجزائر

شوارع برلين اليوم مكتظة، لا مكان للمرور، الأماكن محجوزة في كل وسائل النقل، أغلب الناس يمشون راجلين، لم تعد السيارات وسيلتهم الوحيدة، الأقدام كذلك، إنها فرصة السير على الأقدام لمسافة بعيدة. لكن ما بال العمل الذي ينتظرني في الشركة. لقد حان وقت العمل وأنا لا أزال في المحطة!

يا إلهي، هل أضيع يوما من العمل؟ إنها ليست مسؤوليتي على كل حال، إنها مسؤولية وسائل النقل، إنها اليوم في رحلة خاصة... كل الحافلات في نقل خاص! يا للمهزلة! – قلت في نفسي – ثم عدت ألوح لسيارات الأجرة المكتظة عن آخرها. لا يمكن أن يتوقف أحد، فالمكان الذي نحن فيه غير مناسب للركوب، يمكننا تغيير المكان – قال أحد الواقفين معي على الرصيف. لكن مشيا على الأقدام كذلك – رددت متسائلا – ثم عزمت على المشي إلى محطة أجد فيها مكانا شاغرا في إحدى الحافلات المكتظة.

وصلت المحطة المجاورة وانتظرت علني أجد مكانا مع تلك الأجساد الملتصقة، ثم انتبهت إلى شيء غير عادي في تلك الحافلات... إنها تحمل فقط الشباب من غير الكبار، أيمكن أن يكونوا طلبة الجامعات وهم في رحلات علمية خاصة؟ قد يكون ذلك، لكن أين الكبار؟ سألت الرجل الذي رافقني في السير عن هذه التمثيلية التي نراها، فقال: ألا تعرف ما هو اليوم؟

قلت مندهشا: بلى إنه يوم كسائر الأيام، إنه يوم عمل أليس كذلك؟

قال: إنه ليس كما تظن، أحسبك غريبا عن هذه البلاد أليس كذلك؟

قلت: نعم، ولكن كنت أظن أنكم تقدسون العمل أكثر منا.

قال: هناك ما هو أقدس اليوم!!

قلت: هناك ما هو أقدس، ماذا تقصد؟ هل هو ذكرى الوحدة، أم ذكرى احتلال باريس...؟!

قال: ليس شيئا من ذلك، إنه «عيد الحب»، ألا تعلم؟ إننا في الرابع عشر من فبراير «شباط»، وهو يوم مميز عندنا نحن الألمان.

قلت: هل قلت عيد الحب؟!

قال: إنه عيد الحب. وهو أشهر من أن أذكرك به لولا أنك غريب. لكن لا بأس، فأنتم لا تعرفون الحب. ومن جهل الشيء عاداه!!

قلت – وقد انتفخت من الغيظ-: أنتم الذين لا تعرفون الحب إلا يوما في العام، أما نحن فأيامنا كلها للحب، هكذا تعلمنا...

عرف الرفيق من نبرة كلامي أنني متخلف تسللت من القرون الوسطى، فلم يزد شيئا ثم انصرف يمشي على الأقدام.

بقيت قابعا في ذلك المكان أفكر في كلام الرجل، والغيظ لا يزال يأسرني – وقد نسيت العمل الذي جئت من أجله – بالمناسبة، العطلة مدفوعة الأجر، فلم العجلة؟

تريثت قليلا قبل أن أعقب راجعا إلى بيتي، مددت بصري إلى الجهة المقابلة للطريق السريعة فلاحت عجوز قد بلغت من الكبر عتيا، تتكئ على عصا بكلتا يديها وهي واقفة تنتظر قطع الطريق!! بقيت أنتظر، وقد هالني المنظر، عجوز في الثمانين تنتظر قطع الطريق ولا تجد أحدا يساعدها، حتى رجال الشرطة المسؤولون عن تنظيم السير ومساعدة المسنين كانوا في عطلة مدفوعة... لقد ذهبوا لعيد الحب...!!

ثارت نوازع الحب والشفقة في قلبي، فرحت أوقف السيارات الذاهبة والعائدة حتى وصلت عندها. أمسكت بإحدى يديها وتركت الأخرى للعصا تتوكأ عليها، ثم قطعنا الطريق السريعة – وقد توقفت السيارات كلها ونحن نمشي ببطء السلحفاة – وأبواق السيارات لا تبرح تزعجنا، لكننا أخيرا وصلنا إلى الرصيف المقابل.

حمدت الله على سلامتها قبل سلامتي، وهممت بالعودة إلى بيتي..

ليس بعد يا فتى، لا تذهب الآن، لي معك كلام «قالت العجوز».

عدت القهقرى عند العجوز فعلمت قصدها، ورحت أرافقها إلى سوق الخضار حيث اشترت بعض حاجياتها، ثم عدت معها حتى أوصلتها دارها الواقعة على مسيرة نصف ساعة من السوق، ثم هممت بالرجوع.

العجوز: لا يمكنك الذهاب، عليك أن تأتي معي... لا تقلق فأنا الوحيدة في هذه الدار.

ترددت في البداية، ثم لبيت رغبتها، وصعدت الطابق الأول الذي تسكن فيه، كانت الوحيدة – فعلا – في البيت، وذلك هو تساؤلي الأول؟

العجوز «إلين»: لا بأس بفنجان قهوة أو كأس عصير وللحديث بقية... كانت قد حضرت القهوة قبل خروجها في الصباح وكذلك العصير، ولذلك لم تبطئ عليَّ وقعدت في الجهة المقابلة لأريكتي ممسكة كأس القهوة التي بدت لي باردة في يدها على حرارتها الشديدة، ثم بدأت تقول:

لا أعرف كيف أشكرك، وأنا مدينة لك بكل ما فعلت، فأنت الوحيد الذي احتفل اليوم بعيد الحب، لا أعرفك يا ولدي، لكن لا بأس.. ألا أسالك من تكون، يهمني أنك قاسمتني المشاعر... والذكريات كذلك...!!

قلت: المشاعر... ربما، لكن ما بال الذكريات؟!

إلين: قصتي طويلة يا ولدي، ولا أريد أن أثقل قلبك البض بهموم عجوز لم يبق لها سوى الرحيل... ثم انهمكت في البكاء...

قلت – متظاهراً بالغضب -: عليك أن تقصي علي قصتك وإلا انصرفت في الحال.

قالت – بعد أن مسحت الدموع من على خديها-: كان ذلك منذ خمسين عاما، كنت في الثلاثين من عمري، كنت جميلة، والصور التي على المكتب تدل على ذلك، لم أكن بعد متزوجة، كانت العروض تتهافت علي يمينا وشمالا، كانت عروضا مغرية، جمالي كان المقياس الذي رفعني إلى مستوى النبلاء، وأنا لا أفتأ أتمنع، كنت أحسبني صغيرة، وكنت أحسب الشباب لا يزول، والجمال كذلك، فرحت أرفض كل العروض وأتعزز على أمي وأبي اللذين نصحاني بالزواج قبل فوات الأوان، لم أكن أفهم أن الأوان سوف يفوت يوما، كنت أقول في نفسي: ما دمت جميلة، والشبان يتهافتون علي كالذباب، فلا بأس بالتعزز حتى أرضي هوىً في نفسي، ثم أتزوج بمن شئت...!!

وفي مثل هذا اليوم – واصلت تقول – خرجت مع أصدقائي الذين كانوا كثرا، ورحنا نعيش يوما بعيدين عن نظر المجتمع في مكان خال إلا من الأشجار، هنالك مارسنا الحب كما كان يبدو لنا، فتحنا الأبواب على مصراعيها للرذيلة، هتكنا كل أستار الحشمة والعفاف، وعدنا بعد ذلك إلى بيوتنا.

لم أعد كما رحت أول مرة – كنت متأكدة من ذلك – رجعت وأنا أحمل ضميرا يقتلني ويعيد قتلي، وببذرة سوء في رحمي، ومرض مدى حياتي يرافقني...

تسكت... تجهش بالبكاء... ثم تواصل: علمت بعد أسبوع بحملي، فرحت ألتمس كل الوسائل لإجهاضي، وقد تم ذلك بمساعدة طبيبة كانت من معارفي، لكن الجرح لم يندمل، كانت صحتي تتدهور يوما بعد يوم، زرت الطبيب المختص فطمأنني، لكن قلبي لم يطمئن، وراح يعذبني، كنت متأكدة من حصول شيء غير محبوب، وقلت في نفسي: علي بالرجوع إلى طبيب مختص آخر عله يصارحني بالحقيقة...

تسكت مرة أخرى... تلتقط أنفاسها... ثم تواصل: لقد كانت الحقيقة مرة، اكتشفت أنني مصابة بالزهري، وذلك ما حطمني، وأظلمت الدنيا في عيني، لم أكن أعرف كيف أواصل الحياة، وأنا أعرف مصيري، فكرت كثيرا في وضع حد لحياتي، لكن شيئا من الأمل في الشفاء ومساعدة والدي حال دون ذلك.

واصلت العلاج – وأملي بالشفاء قليل – وأحسست أن الموت ينتظرني في كل ركن من أركان المستشفى أو البيت، لم يعد أصدقائي الذين كانوا يحبونني يزورونني بعدما عرفوا حقيقة مرضي، أبي وأمي كانا الوحيدين اللذين يزوراني، حتى إخوتي جفوني وتركوني ألقى مصيري...

مرت السنوات وأنا بين الحياة والموت، بين المستشفى والبيت، وبدأ جمالي يذبل شيئا فشيئا كما تذبل الوردة الجميلة بعد قطعها لساعات قليلة، هرب مني المحبون، تنكروا لصحبتي وأنا التي كنت نديمتهم في الليل والنهار، لم أعد جميلة اليوم، ولم أعد أحسن ممارسة الرذيلة كما كنت، هكذا كان يفكر هؤلاء الندماء.

بعد سنوات قليلة مات أبي بمرض القلب الذي كان يعاني منه بسببي، ثم لحقته أمي بالمرض نفسه، وبقيت الوحيدة في البيت، لم أكن أعمل، وكنت أعيش على تركة أبي وأمي، لم يكن العمل سهلا لشخص مريض بمثل مرضي، فكان مصيري مكوثي في بيتي.

بدأت صحتي تتدهور أكثر كلما تقدم بي العمر، فقدت الشهية في كل شيء حتى في الحياة. اعتزلت الناس بعد ذلك كما اعتزلوني، وبقيت أصارع الموت الذي لا شك مدركي، وأصبح الذين كانوا يتهافتون على مكالمتي يتحاشون ملاقاتي، أنا كذلك لم أعد أطيق ملاقاتهم، عرفت – أنا الأخرى- مقدار تفاهتهم كما عرفت مقدار طيشي ونزقي من قبل، ففضلت الانزواء لوحدي، لا أخرج إلا لضرورة، - وأنا كما تراني – وجه من وجوه الآخرة، تقتلني حالي مرة، وتقتلني في الثانية ذكرياتي، كنت دائما أقول: يا ليتني لم أكن جميلة...!!

انحبس كلامها... أجهشت بالبكاء... ثم توقفت.

لم يكن لي بد من الإجهاش بالبكاء، وأنا أضع كأس العصير الذي لم أشربه، ثم وقفت أنظر من النافذة. لقد عاد الرفقاء من رحلة «الحب». لعنت الحب البهيمي الذي أمات العجوز التي لم تمت، ثم لعنت الذين يقيمون له عيدا! ■